على هامش الصراحة

حرية النقد البنّاء

إحسان شمران الياسري

عودتنا الأقلام التي تتطاول على الأشخاص والمؤسسات وهي تنتقد وتلوم أو تتمنى إن الحرية في التعبير، وهي نعمة كبيرة لشعب لم يعتدها، إن الإفراط فيها لم يَعُد من باب الشجاعة، بل قد يكون إسفافاً لن تسمعه أذن الذي تعنيه الانتقادات والشتائم، وهي ليست شجاعة، لأن الشجاعة في التعبير ذهبت مع (صاحبها!!).. ويقولون بهذا الصدد إن أحد الروس زمن الشيوعية سأل ضيفه الأمريكي عن معنى الحرية والديمقراطية اللتين تنعم بهما أمريكا.. فقال الأمريكي:

– أنا أستطيع أن أشتم الرئيس الأمريكي دون أن يحاسبني أحد..

فرد الروسي، ويبدو إنه كان من الكوادر المتقدمة في الحزب الشيوعي الروسي:

– بسيطة أنا أيضاً أستطيع الآن أن أشتم الرئيس (الأمريكي) دون أن يحاسبني أحد !!.

أقول هذا وأنا أقرأ لأقلام مسؤولة وأنيقة، كلاماً بذيئا عن ساسة وقيادات في البلد.. كلاماً فيه حرية كبيرة في شتم الرئيسين (الأمريكي) و (الروسي) في زمن لم يعد فيه الشتم أو (اللطم) نمطاً من أنماط المعارضة، ولم تعد النكتة عن الرئيس تودي بصاحبها إلى المشنقة.. ولم يعد الرئيس يكترث للشتيمة حتى لو حملت كل النوايا الحسنة في الدنيا.. بل إن آذان السياسيين امتلأت من شمع السب والقذف والتطاول تحت ذرائع النقد والنصح والتقريع. وأحسب إن المسؤول لن يكترث لخطاب من هذه الشاكلة حتى لو تضمن إنذاراً بحريق يوشك أن يندلع في مؤسسته. لان المسؤول لم يعد يُطيق الاستمرار في قراءة الكلام الجارح لكي يصل إلى النتيجة التي تقول له إن معاونك فاسد أو سارق. وهنا ضاعت أهداف الكتابات النبيلة والبناءة لمجرد إدخالها في قالب حرية التعبير وتضمينها كلمات النقد الجارحة.

أنا أقترح أن نمنح مؤسسات الدولة ومسؤوليها عطلة من النقد الجارح لمئة يوم نمضيها متأسين بشعر الجواهري العظيم (اسعف فمي يُطلعكَ حُراً ناطقاً عسلاً وليس مُداهنا معسولا..).. فلنخاطبهم بالعسل والثناء على كل ما يمكن أن يقوموا به الآن. وان نعوّد أقلامنا أن تكون خصبة في تناول المشاكل، مع انني اعتقد إن العديد منا يضطرون لفعل ما فعله الخليفة مع قاضيه الذي كان (يعضّ المشتكي من الزردوم أحياناً).

ihsanshamran@yahoo.com

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

المسؤول الذي نريده

أ.د. حسين أمين

المسؤول الناجح في أي موقع لا يجيء بالصدفة، وإنما يفترض أن يكون الابن الشرعي للنزاهة والتجرد ومخاصمة التحزب لفريق دون آخر، حيث المصلحة العامة تجلس وحدها في مقعد متميز لا يشاركها فيه أحد.

والمسؤول صغيرا كان أم كبيرا يفضل أن يكون على قدر واسع من العلم والثقافة والمعرفة، فالتاريخ ودروسه يزيدانه علما بحسنات وأخطاء من سبقوه، وعندما يكون المسؤول على مثل هذا القدر من الثقافة وحسن الفهم والإدراك يصعب على محترفي الوساوس والشكوك والوشايات أن يصلوا إلى داخل عقله أو أن يؤثروا على قراراته، لأن عقله الناضج لا ينفتح على مصراعيه إلا لمن يستشعر أنهم يملكون معلومات صحيحة دقيقة سرعان ما يلتقطها بذكائه الحاد ولماحيته البراقة!

وأنجح المسؤولين هم الذين لا يكفون عن المتابعة والذين يواصلون السؤال عن مصير التوجهات التي أعلنوها والقرارات التي أصدروها لكي يتأكدوا من أن هذه التوجهات والقرارات قد عرفت طريقها إلى أرض الواقع ولم تعبث بها في الطريق أيدي المعوقين والمعطلين الذين لا يعدمون اختلاق الوسائل والتبريرات للتغطية على سلوكياتهم المريضة.

والحقيقة أن من أهم واجبات المسؤول الناجح أن يظل على اتصال مباشر مع القاعدة العريضة من مرءوسيه، وأن يتجول بينهم على فترات شبه منتظمة حتى يستطيع أن يلمس على الطبيعة نبض هؤلاء العاملين فينتصر لمصلحة الغالبية العظمى بعد الاستماع إلى الشكايات والهموم الحقيقية، ويتبعها باتخاذ القرارات الفورية التي ترد المظالم وتعيد الحقوق لأصحابها.

وعندما تتعلق أبصار الناس وعيونها بالمسؤول الناجح فإن ذلك مرجعه مجموعة عوامل أساسية، في مقدمتها أنه لا يركز فقط على سرد الأوجاع والمشاكل وإنما دائما يسمعون منه وعودا صريحة بأن بمقدور الجميع أن يسهموا في سرعة الخروج من عنق الزجاجة بالتكاتف والحب والانتماء والتوافق على حلول عملية وواقعية تستند إلى العلم والإمكانات المتاحة، وتخاصم بالونات الأوهام وحبوب المسكنات الوقتية أو المخدرة!

والمسؤول لا يترك بصمة في موقعه عندما يتركز اهتمامه على مجد شخصي، توهم أنه يستطيع أن يصنعه من خلال تركيز كل الصلاحيات في يديه، وإنما الذي يصنع البصمة الخالدة له ولموقعه هو ما يتركه من أعمال وإنجازات يصعب على أحد مهما يمتلئ قلبه بالحقد أن يمسحها لأنها محفورة ومثبتة على أرض الواقع بحب الناس واقتناعهم بعظمة ونزاهة صانعها!

الإبداع والثقافة... وارتباطهما معاً بسياسة الرقمنة

عبد المجيد حسن شياع

وتتيح هذه التكنولوجيا الفرصة لارتياد مجالات علمية وثقافية كثيرة ومتنوعة، وكثيرا ما تكون متناقضة في ما بينها ، ولكن هناك أجيال جديدة تعرف كيف تتعامل بتلقائية شديدة مع هذه الثقافة الرقمية والتي تؤلف جزءاً من تكوينهم الذهني وسلوكهم الطبيعي ، بحيث يطلق عليهم في بعض الكتابات اسم ((الناس الرقميين)) الذين ولدوا وترعرعوا وشبوا في هذا العالم الرقمي واندمجوا فيه بكل كيانهم ، وإن كانت هناك اتجاهات مضادة لا تنظر بعين الارتياح إلى ذلك الاندماج الذي يكاد يصل إلى حد التوحد الذي يسلب الفرد شخصيته وكيانه المتميز .

ويقول ((آرتور كويستلر)) في أحد كتبه والذي صدر بالإنكليزية عام ((١٩٦٤)): ((إن الإنسان خلاق مبدعا بطبعه ولكن قواعد السلوك ومبادئ التفكير السائدة في المجتمع كثيراً ما تفرض قيوداً تحد من انطلاق تلك القدرات)) ، فالإبداع عملية ذهنية واجتماعية في وقتٍ واحد ولكنها تتضمن تصورات وأفكاراً تعبر عن رؤية ثورية غير مسبوقة ، وتعتمد على صياغات جديدة تماماً للأشياء ، وقد تكون هناك جوانب غريزية في التكوين الذهني للإنسان المبدع ، ولكن لابد من وجود عناصر خارجية في العالم المحيط به تؤلف مادة هذا الإبداع .

ولقد كانت الثقافة والإبداع مرتبطين منذ أقدم العصور بالتطورات التكنولوجية التي حققها المجتمع في كل عصر من تلك العصور، فالرسوم والتصاوير الجدارية في كهوف العصر الحجري مثلا لم تكن لتتم لولا توافر العناصر والمكونات المادية والأدوات والآلات التي استخدمها الإنسان المبكر في إنجاز عمله ، وذلك الى جانب امتلاكه هو نفسه القدرة الإبداعية الفنية من ناحية ، ووجود الإنسان المتلقي الذي يدرك معنى تلك الرسوم ويستمتع بها جمالياً من ناحية أخرى ، وقد أدت الثورة التكنولوجية الرقمية في أواخر القرن العشرين إلى قيام نماذج جديدة ومعقدة من الإبداع الذي بلغ ذروته في العقود الثلاثة الأخيرة ، وقد أتاحت هذه الثورة مجالات واسعة جداً للتجديد والابتكار والاستفادة من العناصر المادية والفكرية المتاحة في الإنتاج المبتكر وتداوله ونشره والدعوة إلى المشاركة فيه عن طريق التذوق والتقييم أو الإضافة إليه ، وساعد ذلك على الكشف عن المواهب الدفينة لدى أشخاص لم تكن لديهم في الأغلب مثل هذه الفرص أو الإمكانات من قبل ، فهذه التكنولوجيا تتيح كل الإمكانات أمام الفرد للاتصال بالعالم الواسع الفسيح والتعرف على ما يدور فيه من أحداث وأفكار وإنجازات علمية وأدبية وفنية ، وتترك له المجال واسعاً للاستفادة منها وحرية التعامل معها سواء بالاستعارة الصحيحة ، أو بالمزج بين أشكالها المختلفة ، أو إعادة ترتيب عناصرها وتشكيلها وصياغتها في نماذج جديدة ، لذلك فقد يكون من الصعب التنبؤ بما سيكون عليه الوضع بالنسبة للإبداع في المستقبل .

على أية حال ، فإن استخدام هذه التكنولوجيات الحديثة يؤدي إلى اتساع نطاق مصادر المعرفة وتبادل المعلومات والتأثر والتأثير المتبادل بين الثقافات والى تذليل الصعوبات، وإتاحة الفرصة للكثيرين في إنتاج أشكال جديدة وأعمال مبتكرة من الأدب والفن وخاصة في مجال التصوير والموسيقى بطريقة تلقائية بعيداً عن القيود والقواعد والإرشادات المتزمتة، كما يعمل على توسيع الخيال وفتح مجالات عدة ومتنوعة للابتكار عن طريق التفاعل بين الإنسان والأجهزة وتسخيرها في تحقيق هذه الإبداعات، مع إمكان الاحتفاظ بنسخ منها ونشرها وتبادلها على نطاق أوسع ، ومن شأن ذلك توسيع دائرة المهتمين بالإبداع في مختلف صوره وأشكاله ومجالاته مع تنمية ملكة التذوق والتقدير والنقد وتشجيع العديد منهم على ارتياد مجال الإبداع الشخصي في الفن والكتابة .

وإذا كان هناك من يشكو الآثار السلبية المترتبة على المبالغة في الارتباط بالحاسوب إلى حد الإدمان واعتبار ذلك مسؤولاً عن تدهور القدرات الذهنية والفكر المستقل والانقياد وراء الآخرين ومحاكاة إنجازهم وبالتالي تراجع الشخصية الإبداعية لدى الفرد ، فإن هناك على الجانب الآخر من يرى إن ذلك الارتباط يساعد على تنشيط التفكير والخيال والإبداع والتوصل الى اكتشافات مثيرة ، كثيراً ما تتحقق عن طريق إعادة تنظيم وترتيب العلاقة بين الأشكال والأفكار والألوان والأصوات وما إليها من عناصر الإبداع المتوافرة بالفعل والتي يسهل الحصول عليها من خلال تلك الوسائل الرقمية التي أسهمت في إزالة الفوارق بين ما هو افتراضي أو غير حقيقي وما هو معروف ومألوف ووسعت المجال أمام التفكير المتسامي عن الواقع المحسوس والمحدود ، كما إنها تعمل على توسيع نظام الابتكار وظهور مبتكرين ومبدعين جدد لهم القدرة على مزج أساليب ووسائل التعبير المختلفة في وحدة معقدة ولكن تتكامل فيها عناصر اللغة والرسم والموسيقى والنحت وغيرها بشكل تعجز عنه وسائل الإبداع القديمة ، ومن الصعب فرض قيود على قوة انتشار الرقمنة وتحديد تأثيراتها أو حصر ذلك التأثير في نطاق محدد يمنع انتشارها على مستوى العالم ، وثمة عبارة طريفة تقول : ((إن محاولة جعل الملفات الرقمية غير قابلة للانتشار بالنقل والنسخ تشبه محاولة جعل الماء خاليا من البلل))!

إن هذا كله يغير الى حد كبير الفكرة التقليدية عن الإبداع والأصالة وارتباطهما بقوى وملكات استثنائية لا تتوافر إلا للقلائل ، كما يغير النظرة الى الحاسوب والانترنيت واعتبارهما شريكين كاملين في عملية الإبداع وليس مجرد وسيلتين لإنجاز الإبداع ، فالتكنولوجيا الرقمية تؤدي الى تغيير العلاقة بين الإنسان ومفهوم الإبداع والإنتاج والتوزيع والانتشار وإن كانت تؤدي في الوقت ذاته إلى تراجع معنى الأصالة الفردية وازدياد درجات التشابه بين إنتاج الكثيرين من المبدعين ، كما هو واضح الآن في الإنتاج الموسيقي في كثير من دول العالم ، نتيجة التأثر بإبداعات الآخرين في الثقافات المختلفة التي تنقلها هذه التكنولوجيا.

وإذا كان التصور القديم أو السائد لدى الكثيرين إن الإبداع يتطلب حياة العزلة والتباعد عن المؤثرات الاجتماعية والترفع عن الانشغال بالمشكلات الحياتية العادية وبالتالي عدم الالتزام بالقيم والمعايير الاجتماعية بل والتحرر منها كلياً ، فإن هذا التصور بدأ يتراجع ، وتظهر الدعاوى بضرورة الالتزام بمقومات المجتمع ومبادئه وقيمه نتيجة لاتساع هذا المفهوم وعدم اقتصاره على الإنجاز والتجديد في مجالات محددة بالذات ، فمواقف الحياة اليومية مصدر للإبداع الذي هو ، على أية حال ، قوة كامنة تحتاج الى مثير فكري داخلي أو مادي خارجي يدعو الى التأمل والإحساس به والتجاوب معه والتعبير عنه بالكلام أو الحركة أو الصوت أو اللون أو غير ذلك من الوسائل .

إن توافر العامل المثير الداخلي أو الخارجي أمر مهم في الإبداع الذي لا ينتج من لاشيء ولا يوجد في فضاء ، لأنه في آخر الأمر نظرة جديدة الى أمور أو أشياء موجودة فعلاً ، وتعتمد هذه النظرة الجديدة او تستوجب إعادة تنظيم العناصر والوحدات المكونة لتلك الأمور أو الأشياء المتاحة ، بحيث ينجم عنها إنتاج جديد أو إبداع قد يثير الدهشة والإعجاب ، نظرا لابتعاده وتميزه عن القديم ومخالفته للمألوف ، وهذه التكنولوجيات تتيح ذلك على أوسع نطاق وبغير حدود مما يجعل البعض يقول إن الإبداع الآن يقوم على ((القرصنة))، دون أن يكون لهذه الكلمة أية أبعاد تقويمية أو أخلاقية سلبية ، وانتشار التكنولوجيا الرقمية يساعد على انتشار هذه القرصنة ، فالمجالات واسعة ومتعددة والثروات الفنية والأدبية وفيرة ومتنوعة والمجال مفتوح ومباح للقراصنة للإغارة والدخول بغير حساب .

ولكن هذا يثير التساؤل عما إذا كانت الوسائل الرقمية توفر العناصر التي تستخدم في الإبداع عن طريق إتاحة الحصول عليها من شبكات الإنترنيت الميسورة للجميع وبغير قيود أو حدود في أغلب الأحيان ، كما تتولى عملية مزج تلك العناصر وإعادة ترتيبها حسب تصورات ذاتية خاصة وصياغتها وتشكيلها في قوالب جديدة يعتبر إبداعاً بالمعنى التقليدي الدقيق للكلمة ، وذلك بصرف النظر عما يقال عن التغييرات التي طرأت على أبعاد ذلك المفهوم والتوسع في استعمال الكلمة في الحياة اليومية ، فهي عن طريق تيسير التعرف والاتصال بإبداعات الآخرين وتسهيل إعادة ترتيب العناصر الفكرية والمادية بغير حدود تساعد على ظهور إبداعات جديدة وإضفاء ملامح وعناصر وسمات شخصية متميزة على الإبداع الجديد ، وجزء كبير من الإبداع الفني بالذات يعتمد الآن على الاختيار والانتقاء من أعمال مبدعين آخرين من مختلف أنحاء العالم ومصادر لم يكن الاتصال بها أو حتى مجرد المعرفة بوجودها أمراً ميسوراً قبل الثورة الالكترونية والاتجاه نحو رقمنة المنتجات الثقافية والعمل على تداولها ونشرها على أوسع نطاق.

والواقع إن الكثيرين يرفضون اعتبار هذه الأعمال إبداعاً لافتقارها إلى الأصالة ، نظراً لأن العناصر المستخدمة في تكوينها وتشكيلها هي من صنع وجهد الآخرين ، وينطبق هذا الرفض بوجه خاص على ما يعرف باسم ((الموسيقى الرقمية)) التي يعتمد أصحابها في تأليفها على نغمات مقتبسة من أعمال الآخرين والتلاعب في ترتيبها وإعادة توزيعها ومزجها عن طريق الحاسوب الذي ينفذ ما يصدر إليه من أوامر بكل دقة وكفاءة يعجز عنها البشر ، بل إن هذا يصدق على جانب كبير جداً من الإنتاج العلمي والأدبي والثقافي ، فالتكنولوجيا الرقمية تساعد دون قصد على اللجوء الى القرصنة وتتستر عليها ، وتخفي معالمها تماماً بقدرتها الفائقة على المزج وإعادة الترتيب والتشكيل بحيث يبدو العمل في آخر الأمر كما لو كان إبداعاً أصيلاً.

والسؤال الثاني الذي تثيره معظم الكتابات التي تتناول دور الرقمنة في الإبداع هو : ((إلى أي حد وكيف يمكن استخدام التكنولوجيا الرقمية في تنمية القدرات الإبداعية ، بالرغم مما قد يبدو من تناقض بين هذا التساؤل وما قيل عن رفض الكثيرين اعتبار هذا النوع من الإبداع إنتاجاً ؟))، والإجابة عن هذا السؤال تقتضي الاحتكام إلى أساليب التربية والتعليم والتنشئة المتبعة في المجتمع ، ولكن الملاحظ بوجه عام إنه في المراحل الأولى من نظم التعليم في الخارج يميل الاتجاه نحو ترك الحرية مطلقة أمام الأطفال في المدارس لاستخدام الحاسوب دون قيود ، على اعتبار إن ذلك يساعد على انطلاق أخيلتهم بغير قيود ، والكشف عن إمكاناتهم وقدراتهم على الارتياد وبالتالي تنمية مواهبهم الإبداعية ليس فقط في الفنون ، ولكن أيضا في مجال التعبير عن الذات بالكلمات والكتابة ، وقد أجريت بعض التجارب حول استخدام التلاميذ الصغار لقوى وإمكانات الإبداع عندهم في الكتابة والموسيقى والرسم ، وعلى الرغم من إن هذه البحوث لم تتوصل إلى نتائج قاطعة تماماً فإنه يتم الاسترشاد بها في تطوير الاستخدام التربوي والتعليمي لهذه التكنولوجيا في وضع المناهج والمقررات الدراسية ، حتى في الموضوعات غير الإبداعية ، وبالمثل يرى الكثيرون منهم إن ممارسة الألعاب على الحاسوب تثري الخيال والقدرة على الإبداع ، وكثير من المبدعين في مجال الفنون بالذات يقبلون على تعلم الالكترونيات والاستعانة بها في إنتاجهم ، كما هي الحال بالنسبة للتأليف الموسيقي أو الحيل السينمائية ، لذلك تعتبر القيود المفروضة الآن ، والتي تتزايد بشكل غير مسبوق على حرية تداول الأفكار باسم ((الملكية الفردية)) تهديداً لقوى الإبداع في المستقبل ، ومهما تكن المبررات الأخلاقية والقانونية والاقتصادية وراء ممارسة حق هذه الملكية على الإبداع والإنتاج الرقمي ، فالواضح إن القيود المفروضة الآن على تداول الفكر تتعارض مع المبادئ التي تقوم عليها الحضارة الحديثة التي تنادي بحرية التفكير والتعبير ونشر الثقافة وإزالة العقبات التي تعترض الكشف عن المواهب وتنمية القدرات على الإبداع .

ويوجد الآن في كثير من الدول المتقدمة اتجاه متزايد نحو رقمنة الأعمال الثقافية والفنية والإبداعية المهمة ، والتي تعتبر من المعالم الدالة على التطور الفكري ورقي الملكات والقوى الإبداعية ، وتخصص هذه الدول مبالغ طائلة لتحقيق ذلك الهدف والذي تشارك فيه بعض الدول العربية في العمل على تحقيقه للحفاظ على ذاكرة مجتمعاتها الثقافية وإسهاماً منها في نشر المعلومات عن مكانتها التاريخية والحضارية وتبادل المعلومات مع الأخرى، فهذه التكنولوجيا تضفي على الإنتاج الثقافي والحضاري معنى جديداً ، خصوصاً إذا كان ذلك الإنتاج إنجازاً تراثياً تقليدياً معرضاً للضياع تحت نظم التدوين التقليدية ، وكذلك تعنى بعض الهيئات والمؤسسات الثقافية بنشر الأعمال الكبرى على الشبكات الدولية ، وإتاحة الفرصة للنسخ المجاني ، وعلى الرغم من الأهمية البالغة لمعظم هذه الأعمال فإنها تنتمي في الأغلب للفئة المعروفة باسم ((الأعمال اليتيمة)) التي لم تعد خاضعة لقوانين الملكية الفكرية .

والمهم وعلى أية حال ، هو إن العصر الرقمي والاتجاه نحو رقمنة كثير من الإنتاج الفكري والثقافي وما تتيحه هذه الرقمنة من حرية التداول والاستعارة ، فإنه يلقي أضواء جديدة على مفهوم الإبداع القائم على الانتقاء والاختيار والمزج وإعادة الترتيب والخروج بتشكيلات جديدة لعناصر قديمة ، ولذا يرى الكثيرون الآن إن مبدأ الملكية الفكرية ليس له معنى ، ولم يعد مجدياً تماماً في هذا العصر الرقمي ، وإن المبالغة في التمسك به سوف تكون لها نتائج عكسية على الإبداع والابتكار والتجديد ، مما يعوق التقدم نحو مستقبل أكثر نجاحاً وازدهاراً.

تعتبر المعرفة الرقمية الآن واحدة من أبرز خصائص المجتمع المعاصر ووسيلة فعالة في تحقيق تطلعاته الى المستقبل عن طريق استخدام التكنولوجيات الإلكترونية المتقدمة، مما يؤدي إلى حدوث تغييرات كبيرة ليس فقط في إمكانات التوصل وتداول المعلومات، ولكن أيضاً في منظومة القيم المتوارثة والعلاقات بين الناس، ومع تعقد الحياة وزيادة متطلباتها تزداد الحاجة الى الاستفادة من قوى الإنسان الإبداعية وتنميتها للتغلب على الصعوبات الناجمة عن هذه الأوضاع المعقدة والتي لم يكن له يد في حدوثها ، مما يعني اتساع مفهوم الإبداع ، بحيث لم يعد مقصوراً على مجالات النشاط الفكري والثقافي ، وإنما يمتد الى كثير من جوانب الحياة اليومية ومواجهة الاحتياجات المادية .